الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا
وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية

د. حبيب وداعة الحسناوي*

إن أحد أبرز ملامح الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر في العالم الإسلامي ظهور وانتشار الطرق الصوفية المنظمة في الزوايا حول شيخ وأتباعه وهو ما يطلق عليهم الفقراء أو المريدين. وقد أصبحت هذه الطرق تشكل جانباً مهماً من جوانب الحياة الإسلامية السياسية الاجتماعية والفكرية والدينية الروحية استمر وجودها وتأثيرها إلى الوقت الحاضر.

والبحث في نشأة التصوف وتاريخ الزوايا الصوفية في المغرب العربي عموماً وفي ليبيا خصوصاً يثير جملة من التساؤلات والإشكاليات سواء من حيث المصادر والمراجع، أو من حيث موضوعات البحث والدراسة المتصلة بالتصوف بشكل عام وبهذه الزوايا ودورها في المجتمعات الإسلامية بشكل خاص حيث كان التصوف أكثر المظاهر بروزاً وتأثيراً في الحياة الثقافية والاجتماعية الإسلامية.

والواقع أن المكتبة التاريخية الليبية تفتقر إلى دراسات علمية شمولية حول الحياة الثقافية تحيط بمختلف جوانبها، وتضعها في إطارها التاريخي من منظور شمولي، ودراسة حركة التصوف، كإحدى محاور الحياة الثقافية وإبراز مكانتها في التاريخ الفكري وفي مناهج المؤسسات الدينية والتعليمية، وتأثيرها في الواقع الاجتماعي؛ وفي تشكيل الذهنيات والتصورات الجماعية التي لازلنا، وحتى اليوم، نلمس ونشاهد آثارها في

* مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

سلوكيات شرائح واسعة من المجتمع الليبي، ونظرتهم إلى المقدسات والغيبيات، والتي لاشك تظهر إلى حد كبير مكانة الدين في المجتمع ودوره في تفسير كثير من الأحداث والمواقف والتطورات في المجتمع ونظرته إلى الآخر، وموقفه من حملات الغزو الخارجي والتعامل معها.

وفي هذه الورقة سنحاول مناقشة الظروف التاريخية، أو الإطار التاريخي العام للأوضاع السياسية في الوطن العربي مع التركيز على المغرب العربي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي الفترة التي عاش فيها الشيخ عبد السلام الأسمر (880-981هـ/1475-1574م)، والتي أسهمت إلى حد كبير في ظهور وازدهار حركة التصوف، وظهور الطرق والزوايا الدينية، وتعاظم دور رجال التصوف، وخاصة الذين وصلوا إلى مراحل متقدمة في سلم السمو الصوفي كالولي والغوث، وهي ألقاب لا ينال مكانتها إلا من تدرج في سلم الطريقة، وشهد له الناس بالصلاح والتقوى وعمل المعجزات وظهور الكرامات. ليس هنا مقام مناقشتها. هذه المكانة وصلها الشيخ عبد السلام الأسمر وتلقّب بألقاب: الولي والقطب، والغوث.

وفي هذا الإطار سنركز على التحولات السياسية التي رسمت الخريطة الجديدة لمنطقة المغرب العربي، وأسهمت في تشكيل الأرضية التي قامت عليها الحياة الثقافية في المغرب العربي خلال تلك الفترة، والعوامل الداخلية والخارجية التي شكلت هذه الحياة، وأطرت العلاقات بين أدوات الحكم القائمة والسكان سياسياً واجتماعياً وثقافياً؛ حيث برز العلماء والصلحاء أصحاب الزوايا والطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة في مناطقهم، خاصة تلك المناطق التي انحسر أو ضعف فيها نفوذ الحكومة المركزية، وبدأت تدير شؤون نفسها بنفسها. وبدأت السلطات الحكومية تسعى إلى التقرب من أصحاب الطرق بالهدايا والإقطاعيات، واستغلال نفوذهم في نشر الأمن وتهدئة المناطق المتمردة، وفي فض الخلافات والتوفيق بين الفئات والقوى الداخلية المتصارعة.

لقد كان الدين، إلى جانب دوافع أخرى مهمة سياسية واقتصادية وإستراتيجية، عاملاً محركاً قوياً لسياسات الدول، على ضفتي البحر المتوسط: الضفة الشمالية المسيحية الأوروبية، والضفة الجنوبية والشرقية الأفريقية - الآسيوية الإسلامية، وفي توجيه العلاقات الدولية خلال الفترة ما بين القرنين (13-16) وما بعدها، وأصبح الواجهة التي تخفي وراءها الدول أهدافها الحقيقية في التوسع ومد مناطق النفوذ. فالدين كان العامل الموحد الأساس بين شعوب المغرب العربي والأتراك العثمانيين، وهو أحد

العوامل المهمة وراء تدخل الأتراك العثمانيين في المغرب العربي وتصديهم للعدوان الصليبي وبالتالي، إنقاذهم لسكان هذه المنطقة وتحريرها من الاحتلال الأسباني المدعوم من البابوية، وبقاء الأتراك العثمانيين يحكمون فيها لعدة قرون على أساس الأخوة الإسلامية، رغم ما اعترى هذا الحكم من ظلم وسوء إدارة وانتفاضات شعبية كان يقود بعضها الفقهاء وأصحاب الطرق الصوفية. وهكذا فقد كان تأثير عامل الدين قوياً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وفي تفسير كثير من الأحداث والوقائع والتطورات السياسية المحلية والإقليمية والدولية.

ويقودنا هذا إلى طرح جملة من الأسئلة والقضايا حول ظاهرة التصوف، والتي كان لها حضور وانتشار واسعٌ في هذه المرحلة، شملت العامة والخاصة، حول مدى عمق تأثير هذه ظاهرة على العقل المغربي في جميع مستوياته. وإلى أي مدى يمكن أن يربط بين الجمود العقلي والتخلف السياسي الذي عاشته الدولة العثمانية، وأقطار المغرب العربي جزء منها، وبين الانفتاح العقلي والبحث العلمي الذي بدأت تشهده أوروبا في هذه المرحلة، وقادها إلى التقدم والسيطرة العالمية، وأدى إلى زيادة الهوة بين العالم الإسلامي الذي انحدر نحو الجمود والتقليد والغيبيات، والعالم الغربي الذي انتهج العلم كنمط للتفكير ووسيلة للتقدم؟.

ومن خلال دراسة التيارات والمؤثرات الداخلية والخارجية في حياة المجتمعات الإسلامية تبرز مجموعة أخرى من الأسئلة أو الإشكاليات تتصل بالفئات الاجتماعية المكونة لهذه المجتمعات، وما تطرحه من قضايا تتصل بدورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ومدى قوة ومسافة قربها أو بعدها عن السلطة، ودور المؤسسات الثقافية والعلماء والمرابطين والطرق الصوفية في صياغة قيم ورؤية ومرتكزات العلاقات الاجتماعية والاتجاهات والقضايا الفكرية السائدة آنذاك، وسياسات أدوات الحكم القائمة على دعمها أو مواجهتها، وأثر ذلك في استقرار أو عدم استقرار الأوضاع الداخلية وعلى السلام الاجتماعي.

والشيخ عبد السلام الأسمر، الذي يعقد هذا المؤتمر المكرس للبحث في تاريخه وإبراز الدور العلمي والصوفي والاجتماعي لزاويته وطريقته الصوفية عبر تاريخها، وظروف عصره وتأثيراتها في تكوينه وبناء شخصيته، لم يكن سوى نتاج العصر الذي عاش فيه. ولعله أكثر الشخصيات الصوفية في ليبيا التي نالت سمعة وشهرة واسعتين، ودخل في أعماق المجتمع الليبي بجميع فئاته وأطيافه، وفي الموروث الشعبي الليبي،

ولازال حياً في الذاكرة الشعبية، بفضل الطريقة العروسية؛ نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس، المتفرعة من الطريقة الشاذلية، والتي أرسى دعائم انتشارها في ليبيا الشيخ عبد السلام الأسمر. وقد وجدت هذه الطريقة -كما أشرنا- تربة صالحة لنموها وازدهارها في الأقاليم الليبية، وكان لها تأثيرها القوي في الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية لليبيين منذ إنشائها في القرن السادس عشر، وامتد وجودها وتأثيرها إلى الوقت الحاضر.

وبفضل الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر -هذه الشخصية الكارزمية- تكونت علاقة بين الزاوية الأسمرية التي بناها ببلدة زليتن في الثلث الأول من القرن الخامس عشر وبين المجتمع الذي نمت فيه. وشهدت خلال تاريخها انتساب العدد الوفير من الأتباع والمريدين من مختلف المناطق؛ حيث ساد الإعتقاد والتصديق بولاية الشيخ الأسمر وفضله وكراماته من قبل عدد كبير من مختلف فئات المجتمع، واللجوء إليه في محنهم ومشاكلهم أثناء حياته. وبعد مماته ظلت زاويته منارة لتعليم القرآن والعلوم الدينية، والمنبع الذي ظل يغذي أجيال المتعلمين عبر السنين بثقافة تقليدية، حيث لا يكاد أساتذتها وطلابها يخرجون عن علوم الدين وعلوم العربية.

لقد كان الشيخ عبد السلام الأسمر شخصية اجتماعية غير عادية، وكان له حضوره وتأثيره القوي في أعماق المجتمع بجميع فئاته بما في ذلك النخب العلمية والسياسية ويحيطونه بهالة من القداسة والإكبار، ويعتقدون بأن له كرامات خارقة للعادة ترسخت في عقول العامة، وأنه يتصرف بالإرادة ويؤثر في الأحداث بالهمة والعزيمة والقدرة الغيبية الربانية. وقبره أصبح مزاراً للمريدين والمرضى والمحتاجين والزوار العاديين، والتضرع عنده والتبرك به. والكتب التي تناولت حياته ومناقبه، والروايات الشعبية المتواترة عن سيرته مليئة بالقصص حول هذه الكرامات التي فيها الكثير من التزيّد والمبالغة غير المقبولة عقلاً[1].

1- لقد أعد الباحث مصطفى عمران بن رابعة رسالة علمية حول الشيخ عبد السلام الأسمر بعنوان «زاوية الأسمر وإشعاعها العقدي والروحي في القرن العاشر الهجري»، وضمّن الجزء الثاني منها رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر إلى مريديه، وضمّنه أيضاً قائمة بأسماء أغلب من كتبوا عن الشيخ ومناقبه تضم (21) اسماً، وعناوين أبحاثهم ورسائلهم، يأتي على رأسها كريم الدين البرموني وكتابه روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر. وقد نشر بن رابعة هذه الرسائل تحت عنوان رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الإدريسي الحسيني إلى مريديه، ط1، جمع وتحقيق ودراسة د. مصطفى عمران بن رابعة، بيروت، لبنان، دار المدار الإسلامي، (2003). =

لقد أثر الشيخ الأسمر تأثيراً كبيراً في ميدان الزهد والتصوف، والسيطرة على عقول الناس وترسيخ الاعتقاد بأفكاره وقوة شخصيته من خلال:

1. تلاميذه: فقد كان مدرساً ناجحاً وعالماً واثقاً من رسالته. ومن خلال كتب مناقبه يظهر أنه كان محدثاً ومفسراً قوياً وصاحب شخصية جذابة ومهيمنة.

2. تآليفه: فكتبه ورسائله ووصياه تؤكد أن الشيخ الأسمر لم يكن مجرد زاهد بسيط أو درويش معزول، بل كان عالماً صاحب قضية وطريقة صوفية حريصاً على نشرها عن طريق الكلمة المكتوبة التي تنتقل من شخص إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، كما يتضح من رسائله ومواعظه التي كان يرسلها إلى الأصقاع المختلفة البعيدة والقريبة[2].

وحرصاً على الانتساب إلى الشيخ والتبرك به كان تلاميذه وفقراؤه ومريدوه المنتسبون إلى طريقته يقومون بنسخ تآليفه وآثاره، وخاصة منظوماته وأذكاره الصوفية والأحزاب والأوراد الخاصة بالطريقة، ويحفظونها وينشرونها في كتيبات وملازم. وقد سببت عمليات النسخ وإعادة النسخ، وكذلك عمليات الدس والتشويه من قبل مناوئيه في إدخال ما لم يقله الشيخ وتحريف بعض المعاني والمفاهيم.

3. الزاوية الأسمرية: أسسها الشيخ في بلدة زليتن والتي لم نقف بعد في كل المصادر التي اطلعنا عليها على تاريخ تأسيسها. ولكن من واقع الظروف التي تمر بها البلاد، والأحوال التي مر بها الشيخ منذ ولادته وحتى تاريخ إنشاء الزاوية، فيبدو أن إنشاء الزاوية كان قبيل الاحتلال الأسباني لمدينة طرابلس في 916هـ/1510.

وقد أصبحت تلك الزاوية قبلة الزوار ومقصد الدارسين، وملتقى ومجمع طلاب البركة والشفاء وقضاء الحاجات، ومحطة مهمة على طريق الحج ينزل بها الحجاج المغاربة في ذهابهم وعودتهم من الحج. وهي من أقدم المؤسسات التعليمية في إقليم طرابلس التي حافظت على وجودها واستمرارها وأداء وظيفتها التعليمية والاجتماعية حتى الوقت الحاضر. وقد ساندت السلطات المتعاقبة على حكم البلاد هذه الزاوية التي اتسعت شهرتها وعظمت مكانتها بفضل مكانة صاحبها الذي أصبح علماً يقف على

=
وحول قائمة المؤلفين الذين كتبوا عن الشيخ الأسمر، انظر ص ص 40-42 من المرجع نفسه.

2- المرجع نفسه، ص ص125-372.

أعلى مراتب الصوفية (القطبية أو الغوثية)[3]، وصاحب طريقة صوفية، هي الطريقة السلامية-العروسية، والتي تعد من أكثر الطرق الصوفية انتشاراً في ليبيا.

ولم تقتصر تأثيراته على المجتمع الطرابلسي الممتد على طول الرقعة الجغرافية ما يطلق عليه اليوم ليبيا، بل شملت أقطار المغرب العربي وبلاد السودان وحتى بلاد المشرق العربي من خلال الدور التعليمي المتعاظم الذي تقوم به الزاوية الأسمرية مشعة ثقافة دينية، وما غرسته من تقاليد وعادات وطقوس صوفية يمارسها أتباع الطريقة والزوايا العروسية العديدة التي انتشرت في مناطق عديدة في الداخل والخارج تغذى أتباعها ومريديها روحياً وعقلياً وسلوكياً، والقيام بدور الملجأ والمأوى الذي يقصده الناس في الأزمات الفردية والجماعية ومساعدة الغرباء وعابري السبيل.

لقد شهدت المرحلة الممتدة من منتصف القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تغيرات كبيرة في الخريطة السياسية والجغرافية للعالم، أدت بدورها إلى تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية ذات أبعاد عالمية، وكان لها تأثيراتها المباشرة على الوطن العربي، وخاصة منطقة المغرب العربي وأطراف شبه الجزيرة العربية. فخريطة العالم الإسلامي وأوربا لم تعد كما كانت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر. ففي المشرق الإسلامي كانت هناك ثلاث قوى إسلامية كبرى متصارعة على السيادة عموماً، وعلى منطقة المشرق العربي خصوصاً ممثلة في: أولاً: دولة المماليك التي كانت منذ 1250 تحكم في مصر والشام والحجاز، واستمرت تحكم هذه الأنحاء لمدة تزيد قليلاً على القرنين والنصف[4]. ولعل نجاح المماليك -وهم المنحدرون من

3- يُعرف الشيخ عبد السلام الأسمر القطب أو الغوث في إحدى رسائله إلى مريده سعيد بن عبد الحميد الغدامسي بقوله، هو «من صارت كليّته ظاهرة وقلبه مشغولاً بإقامة العبودية للربوبية، دون غرض آخر وهذا لا يستقيم على وجهه في كل زمان، وهو الخليفة الفرد الغوث مرآة الحضرة الإلهية والواسطة بين الله وبين خلقه في إفاضة الإمدادات الربانية والروحانية والجسمانية، فهو عبده المؤمن المشار إليه، قلبه عرش الرحمن، وصدره كرسيه الذي وسع السماء والأرض» نقلا عن مصطفى بن رابعة (2003) ص131- 132. وجاء في معجم المصطلحات الصوفية ص127، أن «الغوث عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان وقد سمي بذلك باعتبار التجاء الملهوف إليه ويسمى أيضاً بالقطب وقطب العالم وقطب الأقطاب والقطب الأكبر ...» نقلاً عن مصطفى بن رابعة (2003) ص131-132.

4- للمزيد من المعلومات حول دولة المماليك انظر: السيد الباز العريني (1967) المماليك، بيروت: دار =

أجناس غير عربية- في إقامة دولة في بلاد العرب والبقاء في السلطة طيلة هذه المدة ما يكشف عن تردي الأحوال العربية في هذه الفترة وبُعْد العرب عن السياسة وممارسة الحكم. ثانيا: الدولة الصفوية (1501-1786) التي قامت في مطلع القرن السادس عشر، وحكمت شرق الأناضول والعراق وإيران، وقد حقق الصفويون وجودهم أولاً كرؤساء للحركة الصوفية المعروفة باسم الصفوية نسبة إلى اسم مؤسسها الشيخ إسحاق صفي الدين (1252-1334). وفي منتصف القرن الخامس عشر أصبحت الصفوية -تحت زعامة الشيخ جنيد (1447-1460)- حركة شيعية قوية ذات أطماع سياسية حيث اكتسبت أتباعاً كثيرين بين قبائل التركمان وشرق الأناضول التي كانت متذمرة من التدابير المالية والإدارية التي جرى عليها الحكم العثماني ذو التوجهات المركزية. وبعد انهيار دولة الألق قيونلو التي ازدهرت الحركة الصفوية في ظلها، استطاع إسماعيل -حفيد الشيخ جنيد الذي جعل من المذهب الشيعي سياسة وأيديولوجية لدولته واستقطب العديد من المؤيدين له- ملء الفراغ السياسي في الأناضول وفارس وأذربيجان.

وبتأييد قبائل التركمان الشيعية جمع إسماعيل بين سلطة زعيم تحالف التركمان وسلطة زعيم الحركة الصوفية الروحية، ويعتبر المؤسس الفعلي للدولة الصفوية. وفي نهاية القرن الخامس عشر استطاع بمجموعة من الانتصارات أن يصبح سيداً على أذربيجان إثر هزيمته لجيوش تلك الإمارة عام 1501، وعلى غربي فارس والعراق بعد احتلاله بغداد عام 1508، وتوج ملكاً (شاه) على بلاد فارس متخذاً من تبريز التي احتلها عام 1502، عاصمة له[5].

وهكذا بدأ عهد الدولة الصفوية التي عاشت حوالي 285 عاماً. كدولة دينية ذات عقيدة شيعية قوية يحكمها الشاه كالنائب الحقيقي المطلق للإمام المختفي (الغائب).

لقد كان تأسيس الشاه إسماعيل للمذهب الشيعي عملاً سياسياً إلى حد كبير تمَّ التخطيط له ليميز إمبراطوريته بمحاربيها التركمان وصفوتها الحاكمة الشيعية عن غيرها من الدول السنية المجاورة[6]، فأحدث ظهورها على هذا النحو توتراً جديداً في المنطقة،

=

النهضة العربية للطباعة والنشر. فليب حتى (1980) العرب تاريخ موجز، بيروت: دار العلم للملايين، ص252-267.

5- عبد الكريم رافق (1974) العرب والعثمانيون 1516-1916، دمشق، ص9-14.

6- نفس المرجع، ص13.

وأدى إلى بـروز الانقـسام الطائفـي الـذي لازال يقـوم بـدور في سياسـات دول المـنطقة وعلاقـات شـعوبها بعـضها ببعض، وسياسات القوى الخارجية التي تتدخل أحياناً تحت غطـاء حمايـة أتباع هذه الطائفة أو تلك. وقاد إلى صدامات مسلحة مع الدولة العثمانية حـول زعامـة العـالم الإسـلامي، ومـد مناطق النفوذ في مناطق الأناضول خصوصاً، وقد اعـتمد العثمانـيون المذهب السني سياسة رسمية للدولة. وبينما كانت دولة المماليك في حالة ضعف وانحلال كانت الدولة الصفوية مع الدولة العثمانية في حالة قوة ونهوض.

ويقـودنا هـذا للحـديث عـن الدولـة الإسلامية الثالثة في المشرق الإسلامي وهي الدولـة العثمانـية، وقـد قامـت الأخيرة في أواخر القرن الثالث عشر في هضبة الأناضول غربـي آسـيا الـصغرى، ونهضت من نشأة ضعيفة في بداية تأسيسها إلى مركز شامخ في آسيا الغربية وجنوبي شرقي أوروبا وشمالي شرقي أفريقيا وذلك خلال القرنين التاليين.

لقـد كـان قـيام الدولـة العثمانـية علـى هـذا الـنحو من أبرز الأحداث في التاريخ الحـديث، ونقطة تحول مهمة في تاريخ الوطن العربي وتاريخ المشرق الإسلامي عموماً وفي تـاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية بوجه عام. واستطاعت في عهد السلطان محمد الفـاتح عـام 1453 الاسـتيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية – تلك العاصمة الـتي طالمـا وقفـت أسوارها المنيعة حائلاً دون الهجمات الإسلامية لفتحها والتوسع في جنوبـي شـرقي أوروبـا. ولا تمثل واقعة فتح القسطنطينية نهاية الدولة البيزنطية فحسب، ولكـنها أيـضاً مكـنت العثمانـيين مـن تثبـيت أقـدامهم علـى ضـفتي مـضيقي البوسفور والدردنيل واضعين قدماً في آسيا وأخرى في أوروبا، ما سهل على السلطان محمد الفاتح وعلـى الـسلاطين العثمانـيين الـذين جـاءوا مـن بعـده، توسيع فتوحاتهم في شبه جزيرة الـبلقان، والـتوغل في أوروبا الشرقية حتى وصلوا إلى أسوار فيينا عام 1529. وأصبحت الدولـة العثمانـية تحكـم الأناضـول وأجـزاء واسـعة مـن البلقان، والقوة السياسية الأولى المهيمـنة في الحـوض الـشرقي للبحـر المتوسـط(7). وقـد عزز نفوذها في تلك الأنحاء هزيمة الأتراك للمماليك في سنتي 1516 و 1517 في الشام ومصر على التوالي. فبسطوا بالتالـي سـيطرتهم علـى تلـك الجهـات والحجـاز والعراق، وساعدهم ذلك على وضع

7- حول قيام الدولة العثمانية وتوسعاتها وخاصة في الوطن العربي، انظر: عبد الكريم رافق (1974)، ص1-82. روبير مانتران (1992) تاريخ الدولة العثمانية الجزء الأول، ترجمة بشير السباعي، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. أحمد عبد الرحيم مصطفى (1982) في أصول التاريخ العثماني، بيروت: دار الشروق.

الأسـس لمـد نفوذهم المادي والمعنوي في منطقة المغرب العربي. وقد نجح العثمانيون كذلك في إبعاد الخطر البرتغالي عن السواحل الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية.

إن الـبرتغاليين الـذين نجحـوا في الـدوران حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 والوصـول إلى الهند، شرعوا ومنذ عام 1502 في توجيه الضربات القوية للتجارة العربية والتـضييق علـى الـتجار العـرب، واسـتطاعوا النفوذ إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، وأصـبحوا خطـراً حقيقـياً يهـدد الأمـاكن المقدسة في مكة والمدينة. ولم يكن باستطاعة المماليك التصدي لهذا الخطر الداهم رغم محاولاتهم المتواضعة، ما دفع القوى المحلية لطلـب العـون والمـساعدة مـن الدولة العثمانية التي أخذت شهرتها كدولة جهادية تتسع يـوماً بعـد يـوم. وقـد تصدى العثمانيون للحملات البرتغالية في تلك الجهات. ما جعل الدولة العثمانية القوة الأولى في المشرق الإسلامي.

أما في المغرب العربي، فقد شهد بعد الفتح الإسلامي قيام دول كبيرة مثل دولتي المـرابطين (459-537 هـ/1061-1192) والموحدين (524/1129-1268). وقد تمتع المغرب العربي في ظل هاتين الدولتين بالوحدة السياسية، واستطاعت هذه الدول أن تمد سـيطرتها علـى بـلاد الأنـدلس أيـضاً في بعض مراحل تاريخها. وبعد اضمحلال الدولة الأخـيرة بـدأت سمـات الانقسام السياسي تظهر بين أجزاء المغرب العربي، حيث حلت محل الموحدين بالتدريج دول ثلاث: دولة الحفصيين في المغرب الأدنى (1237-1574)، ودولة بني عبد الواد التي اتخذت قاعدتها تلمسان في المغرب الأوسط، وعرفت فيما بعد بالدولة الزيانية، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى.

وقـد تميـزت مـرحلة حكم هذه الدول بالاضطراب السياسي حيث إن ما يسمى اليوم بالحدود السياسية بين هذه الدول لم تكن مضبوطة وثابتة. وظلت هذه الدول تتنازع الـسلطة والـنفوذ، وتـسعى كل منها إلى مد رقعتها على حساب جارتيها، فقد حاول كل مـن الحفـصيين والمـرينيين بـسط نفـوذهم علـى كامـل المغرب العربي على نمط دولة المـوحدين، ولكـن أياً من الدولتين الجديدتين لم تستطع تحقيق أهدافها إلا في مراحل قصيرة، وسرعان ما عادت دولاً إقليمية محدودة.

وقـد وصلت هذه الدويلات في أواخر القرن الخامس عشر إلى مستوى كبير من التدني والانحلال، وأخذ زمام الأمور يفلت من يدها. وأدى هذا الوضع إلى غياب السلطة الفعلـية فـيها، وضـعف قـدراتها العـسكرية وإلى انتـشار الفـتن والانقـسامات والـصراع

والاقتتال بين أفراد الأسر الحاكمة التي ظلت طوال فترة حكمها تعيش في خصومات وصراعات داخلية على الملك والنفوذ. حيث نجد خروج الابن ضد أبيه، والأخ ضد أخيه وابن العم ضد ابن عمه. ووسط هذا الانقسام والتناحر العائلي ظهر أدعياء آخرون ومتآمرون ومغامرون يدعون لأنفسهم ويستقطبون الأنصار والأتباع من بين العامة الذين كانوا دائماً الضحية في هذه الاضطرابات، وهم وقود هذه الحروب، وهم من يقع عليهم تمويلها بما كان يفرض عليهم من ضرائب وغرامات وغيرها، فكانوا تحت ضغط الظلم والاستغلال الذي يتعرضون إليه يستجيبون لهذا أو ذاك من الفرقاء وينصتون لكل ناعق[8].

وقد كثرت الحروب وسادت الفوضى وعمت اللصوصية وانعدم الأمن، وضعف البناء الداخلي للدولة. وأمام هذا الانحلال الداخلي ارتخى حبل علاقة الدولة بجمهور الناس، وخاصة في المناطق البعيدة عن المركز، وظهر عجزها عن مواجهة الخطر الخارجي المتزايد. ويعتبر عامل التجزئة ومشاكل التنازع والانقسام على السلطة أحد العوامل المهمة التي أسهمت فيما بعد في إضعاف هذه الدول، وبالتالي خضوعها للتأثيرات والنفوذ الأجنبيين. وقد أخذت هذه الصراعات الداخلية طابعاً دولياً، وأصبحت

8- أبو القاسم سعد الله (1985) تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م) ج1، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص29.

وحول تطورات الأوضاع الداخلية في المغرب العربي بشكل عام والصراعات داخل أسر المرينيين والوطاسيين والزيانيين والحفصيين وتأثرها بالأوضاع الدولية وتدخلات الأسبان والبرتغاليين في شؤونها الداخلية انظر: إبراهيم حركات (1978) المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى الحاضر (ق14هـ و20م) من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين. ط1، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة. عبد الكريم كريم (1977) المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، الدار البيضاء: شركة الطبع والنشر، وخصوصاً، ص ص 1-31. صلاح العقاد (1985) المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص ص 9-33. شوقي عطا الله الجمل (1977) المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص ص 5-91. مارمول كربخال (1989) أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق وأحمد بنجلون (ثلاثة أجزاء)، الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، وخصوصاً الجزء الثاني والثالث. الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

بلاد المغرب العربي هدفاً للتوسع البرتغالي الأسباني المسيحي، وأصبحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لكل دولة من دول المغرب العربي ولكل أسرة من الأسر الحاكمة فيها. حيث أخذت بعض الأطراف المتنازعة في هذه الأسر تلجأ إلى هؤلاء الأجانب لتنتصر بهم على خصومها. وقد انتهى أمر الدولة الحفصية بوضع نفسها تحت حماية الغزاة الأسبان في مطلع القرن السادس عشر وحتى قضى عليها العثمانيون عام 1574[9].

وفي مقابل هذا التشتت في بلدان المغرب العربي، تقف القوى المسيحية قوية موحدة تعززها القوة المعنوية التي منحتها لها الكنيسة الكاثوليكية، ولا سيما للأسبان وللبرتغاليين، الذين كانوا يمثلون المسيحية رسمياً ويعملون باسمها، ويحملون شعاراتها بتأييد ومباركة من البابا في روما، ويطمعون في هذه البلدان[10].

وهكذا ومنذ أواخر القرن الخامس عشر بدأت سلطات الحكومات القائمة في المغرب العربي تنحسر عن المناطق الداخلية، وأصبحت هذه المناطق تدير شؤون نفسها، فبرز فيها رؤساء القبائل وعلماء الدين والصلحاء الذين مارسوا سلطات واسعة في مناطقهم. وكان من آثار الحروب الأهلية، وفقدان الأمن والعدل تعرض ثغور المنطقة للعدوانيين الصليبيين الأسباني والبرتغالي وعجز أدوات الحكم عن التصدي له، وظهور رد فعل ديني قوي لدى جمهور الناس والعلماء، وظهور عقيدة المرابط، وانتشار الزوايا وبروز المتصوفين؛ حيث وجدت حركة التصوف في تلك الظروف السياسية المضطربة بيئة صالحة لنموها وانتشارها. وجاء العهد العثماني فأضفى عليها الحماية وتعهد رؤساؤها بالدعم المادي والمعنوي، وقد أخذت بالتالي في الازدياد والانتشار والإغراق في ظل الحكم العثماني[11]، فالأتراك كانوا في تكوينهم الديني والنفسي والحربي من أتباع الطرق الصوفية. وكانت الطريقة البكداشية منذ بداية ظهورهم تؤثر فيهم ولها اليد الطولى في توجيههم والدفع بهم إلى الجهاد والغزو، وكانوا يدينون لرجالها بالطاعة والولاء ويتبركون بهم وينظرون إليهم نظرة المريد لشيخه والسيد لسيده[12].

9- صلاح العقاد (1980) ص11.

10- عبد الجليل التميمي (الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر) المجلة التاريخية المغربية، العدد10(يناير1978) ص7-9

11- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص ص 36-37.

12- نفس المرجع، ص 465.

ثـم تعـددت الطـرق الـصوفية في الدولـة العثمانـية وانتشرت بينهم أيضاً. وكانت الـسياسة العثمانـية في هـذا الاتجـاه تقوم على احترام جماعات الطرق الصوفية ومجازاة أصـحابها بـسخاء ورفـع مقـامهم في نظـر العامـة واسـتخدام نفوذهم في ترسيخ السلطة العثمانـية وعـزل مناوئـيها وتـأمين خضوع العامة والثائرين لسلطة الدولة وإعلان الولاء للسلطان.

وهكـذا نجـد أن التـصوف قـد ظهر في المشرق الإسلامي قبل مجيء العثمانيين للمغرب العربي بقرون، ووجد طريقه إلى تلك الجهات في حينه ولاسيما مذهب الإمام الغزالي الذي كان له في الموحدين أنصار ودعاة[13]. وأفرج عن كتبه ومنها كتاب إحياء علـوم الدين الذي صودر في عهد المرابطين وأحرق مع كتب الغزالي الأخرى. والأسماء الأخـرى اللامعـة في عـالم التـصوف مثل الحلاج، وابن الفارض، وجلال الدين الرومي، والحاج بكداش وعبد القادر الجيلاني وغيرهم ظهروا قبل التاريخ المذكور. وفي المغرب العربـي ظهـر متـصوفون مـشهورون قبل هذا التاريخ أيضاً يأتي على رأسهم أبو الحسن الشاذلي، وعبد السلام بن مشيش، وأبو مدين، وأحمد زروق، وعلي الخروبي، وابن عربي الحاتمـي الأندلـسي، وأبـو العبـاس الـسبتي، وابـن سـبعين وغيرهم[14]. ومن بين هؤلاء المتصوفين المشارقة والمغاربة برز مؤسسو الطرق الصوفية الأصلية والفرعية في التاريخ الإسلامي. كالطريقة النقشبندية والقادرية والمولوية، والشاذلية والعروسية وغيرها. وظهر على مسرح الأحداث رجال ينتمون إلى هذه الطرق، وقد لعبوا أدواراً في تشكيل أحداث هذه المرحلة. وظهر منهم فئة جمعوا بين المعرفة العلمية والسلوك الصوفي، أو بين علم الشريعة وعلم الحقيقة أو بين علم الظاهر وعلم الباطن[15].

كمـا أن الـدور المتزايد الذي كان يقوم به هؤلاء في فض الخلافات والتوفيق بين الفئات والقوى الداخلية المتصارعة، وما كانوا يظهرونه من سلوك مستقيم وزهد، وسعي متواصـل لـتأمين الـسبل وحمايـة المظلـومين، ومساعدة الفقراء وأبناء السبيل، أن أصبح

13- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص37.

14- نفس المرجع، ص464، وانظر أيضاً: عبد الهادي الحسيسن «الحركة الثقافية والحضارية في العصر الموحدي وأثرها بالغرب الإسلامي»، ضمن أعمال ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات (1993)، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ص411.

15- إبراهيم حركات (1978)، ص214.

هـؤلاء الـشيوخ المتـصوفون يمارسـون تأثيراً كبيراً على معاصريهم وعلى اللاحقين من بعـدهم، ويحوزون على ثقة العامة ويحوطونهم بهالات من القداسة والإكبار في حياتهم وبعـد ممـاتهم، كمـا اعـتقدوا بـأن لهـم كـرامات خارقـة للعادة، وأنهم يتصرفون بالإرادة ويؤثـرون في الأحداث بالهمة والعزيمة. كما أن أدوات الحكم الضعيفة هي الأخرى قد اسـتفادت من هؤلاء المشائخ في حياتهم، وأظهر الحكام لهم الاحترام والتعظيم، وتقربوا إلـيهم بالهدايا والإقطاعيات في محاولة للاستفادة منهم سياسياً. وقد وجد الدجالون ومن لا ينتمـي إلى الـصلاح بـصلة بـدورهم سبيلاً إلى قلوب العامة البسطاء، ووجدوا، ووجد أتباعهم مجالاً واسعاً للاستغلال والثراء[16].

وهكـذا فقـد تعـاظم دور المتـصوفين في الحـياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتـصادية في كافـة أنحـاء العـالم الإسـلامي، وازداد في المـرحلة التي نتكلم عنها في المغـرب العربـي بـوجه خاص حيث كان لزعماء الصوفية دور التوجيه الروحي لسكان المناطق التي كانت تتعرض للغزو المسيحي الصليبي الأسباني والبرتغالي.

إن المـبالغة في الاعـتقاد في الـشيخ المـرابط أو الولـي، وابتداع الحضرة والأوراد والأذكار وغيرها، وهو ما يشار إليه بالتصوف العملي، والالتفاف حول زواية ذلك الشيخ أو ضـريحه، أمور برزت وانتشرت في القرن الخامس عشر عندما ضعفت الروح الدينية عـند العلمـاء وتـركوا مكـانهم للمتـصوفين. فقـد كـان تـيار العصر يندفع نحو التصوف والدروشـة، وأصبح العلماء يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقة والسبحة والمصافحة والأسـودين (التمر والماء) من أحد شيوخ الصوفية. وكانوا يتباهون بذلك ويسجلونه في مذكـراتهم كأحـد أهـم الأحداث في حياتهم، وأصبح الحكام يظهرون الاحترام والتبجيل لأهـل التـصوف، ويتقـربون إلـيهم بوقـف الأوقـاف عليهم وإعفائهم من الضرائب، وبناء القـباب لهـم والتـبرك بهـم وأخـذ العهـد مـنهم. وكثـر المتـصوفون الحقيقـيون وكذلك المـزيفون مـن الجهلـة الذين كانوا يبتزون أموال الناس ويهددونهم في حياتهم، القادمون مـن الـشرق ومـن الغـرب ينـشرون أفكـارهم وأورادهم بين الناس، ويروج لهم أتباعهم كـراماتهم وخـوارقهم ويـزينون أسـحارهم، وتتـناقل الوفـود والزوار أخبارهم، وكثرت الأضرحـة والقباب ولا يعرف عن كثير من أسماء أصحابها إلا الاسم، ولا تكاد قرية أو مديـنة تخلـو مـن العديـد مـن الـزوايا والأضـرحة والمـشاهد. وعند كل مشهد أو مقام

16- إبراهيم حركات (1978)، 216، أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص475-476.

معـروف يأتـيه الـناس من كل فج يتبركون ويدعون عنده، ويقيمون مهرجانات الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح[17]. وهناك العشرات من هؤلاء المرابطين المغمورين الذين لا يعرف الناس عنهم أكثر من الأسماء وبعض الأساطير والقصص من حولهم بما يعلى من قدرهم في نظر محبيهم ومريديهم. واستمر اختلاق الكرامات وتهويلها والعمل علـى انتـشارها نهجاً قائماً في سلوك الناس، ودخلت الثقافة الشعبية في العالم الإسلامي إلى الوقت الحاضر. وكما يشير أحد الباحثين المعاصرين أن تبني الفكر الكرامي بصفة عامـة والكـم الهائـل من الكرامات التي تنسب لشخصية صوفية ما، والعمل على نشرها بـصفة خاصـة، وهـي في معظمهـا كرامات لا يقبلها عقل ولا يستسيغها منطق، هي من أجـل خلـق شخـصية شـعبية قـوية محـصنة تستطيع أن تقف، وهي المزودة بهذه القدرة الغيبـية الخارقـة، في وجـه الحكـام الظـالمين وتـرهيبهم، وتنتـصر للمظلـومين والفقراء والمحتاجين الذين لا يستطيعون مقاومة هؤلاء الطغاة[18].

فهـي وسـيلة مـن وسـائل المقاومـة الـشعبية الـسلمية، وسـلاح يستخدمه الأولياء المـرابطون في ردع الظـالمين والمتـسلطين والحكـام الجائـرين، وبالتالـي إعلاء قدرهم ومكانتهم بين مريديهم وأتباعهم.

وقـد عـزّز هـؤلاء الـشيوخ مكانـتهم ببـناء زوايـا لهم كانوا ينقطعون فيها للعبادة، وتقوم على استقبال الغرباء والوافدين من الخارج وطلاب العلم، ويخصصون لهم طعاماً يومـياً بما كان يتوفر للزاوية من دخول خيرية وصدقات وأوقاف. ثم تحولت لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لحركة صوفية معينة، بل وأصبحت تعرف هكذا.

لقـدكانت الـزوايا في الأساس في المغرب العربي رباطات أو محتشدات للجهاد ضـد الغـزو الأجنبي ولنشر الإسلام وترسيخ قيمه وعقيدته بين ربوع أهل المنطقة، وبعد أن صفت شأنها كرباطات عسكرية انقطع أغلبها للجهاد الروحي تحت قيادة مؤسسها أو أحد تلامذته من أفراد أسرته أو أتباعه من بعده. وقد أصبحت الزوايا ظاهرة منتشرة في الـرقعة الجغـرافية فـيما يـسمى الـيوم بليبـيا وغيرها من مناطق المغرب العربي، وتقوم بوظـيفة تعليمـية واجتماعية بالإضافة إلى وظيفتها التعبدية الموروثة من التنظيم الأصلي للـزاوية، وهـو الـرباط الـذي كـان مركـزاً للعـبادة والعمـل الـديني والحربي. وقد كانت

17- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص 14-15، 472، وانظر أيضاً: إبراهيم حركات (1978) ص214.
18- مصطفى عمران بن رابعة (2003) ص 42-43.

الـرباطات الإسـلامية تنتـشر على طول الساحل الليبي[19]. وتحول بعضها إلى زوايا في القرن الخامس عشر وما بعده، علاوة على ظهور زوايا أخرى قام بتشييدها بعض الفقهاء والصالحين. ومن بين هذه الزوايا زاوية محمد الحطاب في تاجوراء، وزاوية أحمد زروق في مـصراته، وزاويـة عـبد الله الدوكالـي في مسلاته، وزاوية محمد بن علي الخروبي في طرابلس وغيرها.

والمدقـق في كتب السير والتراجم التي أرخت للحركة الفكرية في ليبيا في القرن الخـامس عـشر وحتـى القـرن الـثامن عشر يلاحظ كثرة المتصوفين والزهاد خلال هذه المرحلة[20].

لقـد تـرتب علـى ظاهـرة انتـشار الـزوايا والأضـرحة وتقـديس المـرابطين بروز ظاهـرتين خطيرتـين في المجـتمع الإسـلامي كـان لهمـا أثـار سلبية وخيمة على الحياة الثقافـية والبحث العلمي. أولهما، كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله، تبسيط المعرفة، وثانـيهما غلـق باب الأجتهاد، ذلك أن نقل التعليم إلى الزوايا قد أدى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى منه بطريقة جافة ريفية ضيقة. وأصبحت الزاوية تنافس المدرسة والجامع في نشر التعليم وكسب الأنصار[21]. ويضيف الدكتور سعد الله في تفسير هذه الظاهرة «وبدل أن يلـتف الـناس حـول العلماء المتنورين في المدارس والمساجد أصبحوا يلتقون في زاوية حول شيخ أو مقدم تغلب على عقله الخرافة وعلى أحواله الزهد. وهكذا تدهور مستوى التعلـيم. وهـذه المنافسة بين العالم والمرابط أو الجامع والزاوية، قد أجبرت أيضاً علماء المساجد والمدارس على تبسيط آرائهم وطرقهم في التعليم ومحتويات دروسهم حتى لا يفـر الطلبة إلى الزوايا والمرابطين ... ولا شك أن التعليم الذي يقوم على هذه الأسس لا يـترك مجـالاً للاجـتهاد وحـرية الـرأي والـبحث وراء المجهـول وإعطاء تفسيرات حرة

19- محمد الهادي شعيرة «الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية» ضمن أعمال مؤتمر: ليبيا عبر التاريخ المنعقد في بنغازي بكلية الآداب (16-23 مارس 1968)، ونشر تحت عنوان ليبيا في التاريخ، بنغازي ، الجامعة الليبية، كلية الآداب، ص235-247.

20- انظر على سبيل المثال تراجم الأعلام في ابن غلبون (2004) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، بيروت: دار الغرب الإسلامي، وأحمد النائب الأنصاري (ب ت) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب وكتابه: نفحات النسرين والريحان في من كان بطرابلس من الأعيان (1963)، تحقيق وتقديم علي مصطفى المصراتي، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر.

21- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص37.

وفلسفية لقضايا الدين والعصر »[22].

وهكذا نلاحظ في هذه المرحلة بروز العلاقة بين التخلف والاضطراب السياسي والجمود الفكري الذي عاشه العالم الإسلامي عموماً، ومنطقة المغرب العربي جزء منه، وبين الانفتاح العقلي والبحث العلمي الذي بدأت تشهده أوروبا في هذه المرحلة وقادها إلى التقدم والسيطرة العالمية. وبينما كانت الأديرة في أوروبا تقف موقف الدفاع عن نفسها أمام إنجازات التقدم العلمي التي تتحقق في أوروبا، نجد العلماء المسلمين قد اكتفوا بالشقشقة اللفظية وشيوع الشروح والهوامش والإقتصار على الفروع دون الأصول، وأصبحت الزوايا في موقف الهجوم والتصدي لكل محاولات التجديد والتغيير، والاكتفاء بمقالات الأولين والاحتفاظ بها على علاّتها أفضل عند أصحاب هذه الزوايا وعلماء ذلك العصر دون نقدها، فقد كانوا ينظرون إليها نظرة تقديس وإكبار، وعكفوا عليها يشرحونها ويمشون عليها، مختصرين مطولاتها ومطولين مختصراتها، أو موضحين لغوامضها. وشمل ذلك كتب الفقه والسيرة والنحو والتصوف والتوحيد والمنطق، وترديدها وتلقينها وإعادة إنتاجها في أحسن الأحوال؛ ما أدى إلى زيادة الهوة بين العالم الإسلامي الذي غربت فيه شمس المعرفة المتجددة وسط ضباب كثيف وانحدر نحو الجمود والتقليد والغيبيات، وبين العالم الغربي الأوروبي الذي طلت شمس معرفته من وراء سحاب وانتهج الأسلوب العلمي كنمط للتفكير ووسيلة للتقدم[23].

ويذكر مؤرخو الفقيه الصوفي عبد السلام الأسمر أن هذا الأخير عندما أسس زاويته بزليتن أحدثت ردة فعل قوية لدى كثير من العلماء الذين كانت لهم حلقات علمية بمساجد البلدة. فقد هجرهم طلابهم إلى حلقات الأسمر الصوفية، وقد اضطر الأسمر في بداية حياته الصوفية العملية إلى مغادرة بلدته وترك زاويته نتيجة للمعارضة المتزايدة التي أبداها علماء البلدة نحوه ونحو طريقته الصوفية. وقد استخدم السماع صحبة البندير فاستقطب بذلك مئات المريدين فاعتبر الفقهاء ذلك ضرباً من البدع وعادوا بسببه الشيخ الأسمر وأرغموه على الهجرة من بلده.

وعندما عاد إلى زليتن بإذن من الوالي، تغيرت نظرة العلماء نحوه وعاد النشاط العلمي والطرقي إلى الزاوية بعد أن نجح الأسمر في عدة مناظرت عقدت بينه وبين

22- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص37.

23- نفس المرجع، ص ص 14-15، 38.

هـؤلاء العلمـاء وانتـصر فـيها علـيهم «وقـد شهدها كل من في البلد ممّن ينتسب للعلم والعلمـاء ... ومـا كان منهم إلا الاعتراف بمشيخته والتسليم له». بل وأصبح بعضهم من أخلـص أتـباعه ومـريديه[24]. ولكـن الـزاوية استمرت في أداء وظيفـتها التعليمـية وفق المـناهج والطـرق التقلـيدية في التعلـيم الـتي يـسيطر عليها الجانب النظري، ولم يخرج علماؤهـا عـن مـواد العقـيدة والتفـسير والحـديث والفقـه المالكي وأصوله وعلوم اللغة العربية. وتبع ذلك، تمشياً مع الضعف السياسي، عدم تطوير التعليم؛ لأنه كان يعتمد في أغلب الأحوال على النقل والرواية لا على الرأي والاجتهاد. وصاحب ذلك بروز الاتجاه الصوفي العملي الذي كان لزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر الدور الرائد في نشره، وظهور أشـخاص جمعـوا بـين العلـم والتصوف والحضرة، بل وبين السياسة والإدارة والتصوف وبالتالـي تعايش الفقهاء والمتصوفة، وأصبح الانتساب إلى طريقة صوفية ما جزءاً متمماً لاكتمال الشخصية العلمية والاجتماعية وتبوء المكانة العالية في المجتمع.

ويحدثـنا الـباحث يحيـى هويدي عن التحول العقائدي والاجتماعي الذي أشرنا إلـيه، وهو يتحدث عن الفترة الواقعة بين حكم الموحدين وحكم العثمانيين في المغرب العربي، والتي تقدر بقرنين ونصف تقريباً (1261-1518)، ولكنه، كما لاحظ أبو القاسم سـعد الله، يـصدق بالخـصوص على القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. بل وينسحب إلى حد كبير على العهد العثماني، يقول هويدي:

«ففـي هـذه القـرون الـتي أعقـبت تفكـك الموحدين وسقوط دولتهم وشهد فيها المغرب هذه الفترة القلقة المفعمة بالاضطرابات السياسية وعرف إبانها الأطماع الأجنبية سـرت في جمـيع أجزائه روح غريبة جعلت الشعب يقبل إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء وكراماتهم ويتناقل خـرقهم للعـادات وأخـبارهم بالمغيـبات واحـتجابهم عـن الأنظـار. إلى غـير ذلـك مـن التـصاريف. وهـو مأخـوذ كأنـه قد أصابه مس من الجن. ثم نجده يندفع في زيارة قبور هـؤلاء الأولـياء وأضـرحتهم ويقـيم حلقـات الذكـر حـول قـبابهم وتتشكل بهذه الطرق الـصوفية الـتي مـلأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بكل ما عرف لها من نظام كهنوتي دقيق يضم النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والمريدين»[25].

24- مصطفى عمران بن رابعة (2003) ص ص36، 31-36.

25- يحيى هويدي، (1966) تاريخ الفلسفة الإسلامية في القارة الأفريقية، القاهرة، ص343 نقلاً عن أبي =

ويجب أن نشير هنا إلى أن حركة التصوف حتى القرن الرابع عشر لم تكن حركة تكتسي صبغة التمرد المسلح على الدولة أو التكتل ضدها، بل كانت في الواقع ثورة سلبية على الوضع الديني والاجتماعي والسياسي الذي صار عليه الجمهور والدولة، وظلت هذه الثورة مكبوتة لتنطلق في صراع مسلح ضد التدخل الأجنبي، وتشتد بازدياد التدخل المسيحي الصليبي في أقطار المغرب العربي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وخاصة في المغرب الأقصى بحكم موقعه الخطير، والذي أصبح من أولى خطوط الدفاع الإسلامية العربية عن المغرب العربي بعد انحسار النفوذ العربي الإسلامي عن الأندلس. ومن أوائل الدول الأوروبية التي وقع عبء التصدي لمحاولاتها عزو الثغور المغربية البرتغال التي تركزت في مناطق ساحلية مهمة في المغرب الشمالي أو منطقة الريف عندما احتلت مدينة سبتة عام 1415، وواصلت احتلال مراكز أخرى في المغرب الأقصى، وفي عام 1458 احتل البرتغاليون مدنية القصر الصغير، وفي عام 1471 قاموا بالاستيلاء على مدينتي أصيلا وطنجة، ومدينة العرائش عام 1473، ثم تلتها اعتداءات برتغالية وأسبانية أخرى، ولا زالت أسبانيا تحتل حتى الآن مدينتي سبتة ومليلة الساحليتين على البحر المتوسط. وقد شهد المغرب الأقصى منذ القرن الخامس عشر بداية الحركات الشعبية المسلحة التي قادها الصلحاء المتصوفة ضد الغزو الصليبي[26].

ويمكن أن نقسّم رجال التصوف إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: كان لا يرتاح إلى الحكام، ولا إلى مجتمع عصره، لأن الزمان في نظر هؤلاء تغير وكثرت فيه الفتن والصراعات والشرور، ويجب الفرار منه والنجاة بالنفس باللجوء إلى الله والانقطاع إلى العبادة، أي أن هذا النوع من المتصوفين لم يعد يعنيه أي شيء في مجتمعهم ولا ما يحدث حولهم لأمتهم سوى النجاة بالنفس وحط التكليف أو المسؤولية عنها، والهروب من الدنيا ومشاكلها وعلومها، والاهتمام بعلوم الآخرة والتفرغ لها[27]. بمعنى آخر أن رجال هذا القسم أو الفريق انصرفوا إلى الزهد لمجرد الزهد، وانقطعوا للعبادة وتجردوا عن الخوض في شؤون الدنيا.

= القاسم سعد الله (1985) ج1، ص39.

26- حول حركات الجهاد المغربية ودور الزوايا والصلحاء في مقاومة الغزو البرتغالي والاسباني في الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر انظر: إبراهيم حركات (1978) ص214-215، وانظر أيضاً: أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص465-466.

27- إبراهيم حركات (1978)، ص101، وانظر أيضاً: أبو القاسم سعد الله (1985) ط1، ص 38، 86-87.

وقد عبّر عن هذا الاتجاه أبلغ تعبير الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، أحد كبار الصوفيين والعلماء اللامعين الجزائريين في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حينما نصح معاصريه بالعزلة بقوله: «إن الواجب فيه (يعني عصره) قطعا لمن أراد النجاة، بعد تحصيله ما يلزم من العلم، أن يعتزل الناس جملة، ويكون جليس بيته ويبكي على نفسه ويدعو دعاء الغريق، لعل الله سبحانه أن يخرق له العادة بفصله عن هذه الفتن المتراكمة في نفسه ودينه إلى أن يرتحل من هذه الدار بموته»[28].

وفي تقديرنا أن هذا الموقف السلبي قد ساعد على تعميق الضعف السياسي والانحلال الاجتماعي والتخلف الفكري الذي كان سائداً وتعاني منه مجتمعات أقطار المغرب العربي.

وأما القسم الثاني فقد ربطوا مصيرهم ببعض الأمراء ويتطلعوا إلى عطاياهم وهداياهم حتى أصبح هؤلاء الأمراء والسلاطين يسخرون العلماء والصلحاء، إلا القليل منهم، لأغراضهم الخاصة والدعاية لأشخاصهم والكتابة بأسمائهم وغير ذلك من الأعمال التي تغطي على تجاوزات هؤلاء الحكام[29].

أما القسم الثالث فقد كانت عناصره تدعو العلماء والصلحاء إلى تحمل مسؤولياتهم أمام الله والناس لصد غارات الكفار. ومن بين هؤلاء عناصر جمعوا بين علم الحقيقة والشريعة، وكانوا إلى الفقهاء أقرب منهم إلى المتصوفة. وإلى جانب العبادة والذكر في الرباطات والزوايا انصرفوا إلى البحث في العلل النفسية والأعراض المادية لمجتمعاتهم ومن ضمنها المشاكل السياسية والانحرافات الاجتماعية والسلوكية ليجدوا حلولاً لتلك المشاكل ومعالجة العلل والعادات السيئة التي انتشرت في المجتمعات المغربية. ومن هؤلاء كونت طلائع حركة الجهاد الشعبية ضد الغزو الصليبي التي اتسع مداها في القرن السادس عشر لدرء ما تتعرض له الثغور المغربية من غزو واحتلال برتغالي واسباني. وعناصر من هذا التيار أسسوا طرقاً صوفية معينة وبنوا زوايا[30]. وهكذا أصبح للمتصوفين في هذه المرحلة إلى جانب دورهم الروحي ونفوذهم البالغ الأثر والتأثير على القاعدة الواسعة من الجمهور، حضورهم الفاعل وقيامهم بأدوار

28- أبو القاسم سعد الله (1985)، ج1، ص38.

29- نفس المرجع، ص46.

30- إبراهيم حركات (1978)، ص214.

متميزة في الميدانين السياسي والحربي.

ونشير هنا أن ملوك بني مرين قد ظهر عجزهم عن استعادة مدينة سبتة من الغزاة البرتغاليين، فتكفلت حركة الجهاد أو المقاومة الشعبية بقيادة أحد المتصرفة بمناوشة قوى الاحتلال لمدة أربع سنوات. ومن المتصوفين الذين تولوا قيادة حركة الجهاد ضد الغزو البرتغالي في هذه المرحلة المبكرة بالمغرب الأقصى الحسن بن محمد من أحفاد عبد السلام بن مشيش، وهو الذي اختط مدينة شفشاون، وقتل بتدبير من البرتغاليين، وكذلك الإمام ابن غازي الذي شارك مراراً في العمليات الحربية ضد البرتغاليين، وعلي بن عثمان الشاوي الذي قتل شهيداً في حروب أصيلاً عام 925هـ/1519م[31].

وقد بلغ الأمر ببعض القائمين على شؤون الجهاد أن كفر كل قادر على الحرب وكل متقاعس عن أداء الواجب المقدس، بما في ذلك الحكام المتخاذلين المستسلمين، حيث كانوا يستنكرون ضعفهم وتخاذلهم عن القيام بتعبئة المجاهدين لقتال العدو. فقد ذكر ابن عساكر في كتابه دوحة الناشر لمحاسن من كان من مشائخ القرن العاشر، أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلول عندما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسي أبو عبد الله محمد الملقب بالبرتغالي (1505-1524) مع الأعداء، آل على نفسه ألا يلقى السلطان المذكور، ولا يمشي إليه، ولا يقبل منه ما كان والده قد عينه له من جزية أهل الذمة بفاس لقوته[32].

وفي هذا السياق يمكن أن نذكر جهود الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يحبش التازي، والشيخ الإمام الهبطي والشيخ أبي عبد الله محمد بن يحيى البهلول الذي سبق ذكره. وقد عمد الأخير إلى تصوير نكبة المسلمين في الأندلس وجعلها مثالاً لترهيب الناس من أن يحل بالمغرب ما حلَّ بالأندلس، ولترغيبهم في الجهاد والدفاع عن الوطن. وأما الشيخ التازي الذي توفى عام 920هـ الموافق 1514م، فقد أذهلته الغفلة التي سيطرت على عقول الناس، وأفزعه انحراف العامة عن الدين القويم في الوقت الذي أخذ العدو يجمع قواته لاكتساح باقي البلاد خصوصاً، وقد تأكد هذا العدو من عجز المغاربة وضعف إمكانياتهم الحربية، وثبت لديه انقسامهم إلى أحزاب وفئات متناحرة، مع عدم اكتراث معظمهم بالمصير الذي آلت إليه بعض المدن الساحلية. وكان يحذّر، كما لاحظ

31- إبراهيم حركات (1978)، ص214.

32- عبد الكريم كريم (1997)، ص25.

الأستاذ عبد الكريم كريم، بأن الأعداء قد احتلوا السواحل، وهم بصدد احتلال ما تبقى من البلاد إن لم يقوموا قومة رجل واحد لصد هؤلاء الدخلاء ولتحرير المراكز المحتلة[33].

وفي الجزائر نجد الفقيه الصوفي عبد الرحمن الثغالبي يدعو أهل مدينة الجزائر وما حولها للجهاد وتوفير أدوات الحرب واتخاذ عدة النصر، ويحذر أهل بجاية ويحثهم على الاستعداد للحرب ومقاتلة الأعداء ويحذرهم من مغبة التهاون في أمر الجهاد[34].

وعندما احتل الأسبان مدينة طرابلس في صيف عام 1510، تذكر المصادر التاريخية أنه كان هناك أكثر من مائة شيخ ومحرض يجوبون المناطق المختلفة يدعون الناس للجهاد والتصدي للغزاة المغيرين.

لقد ظهرت الطرق الصوفية في المدن أولاً ثم انتشرت في الأرياف وكان ذلك ظاهرة عامة في المغرب العربي. وقد ساعد ضعف أدوات الحكم المركزية واضطراب الأحوال السياسية وكثرة الظلم والفساد، كما أشرنا، على انتشار حركة التصوف إلى المناطق الداخلية، وتأسيس اتباع أولئك المرابطين زوايا في الأرياف بنسبة تلفت الأنظار خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وسواء على مستوى العالم الإسلامي أو على مستوى المغرب العربي. وتولت هذه الطرق الصوفية عبئاً كبيراً في إدارة شؤون مناطقهم وتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي الذي كان من المفروض أن تقوم به الدولة، ولم يبق أمام المرابطين من أهل الطرق إلا أن يعتمدوا على أنفسهم وأتباعهم في الدفاع عن الأرض الإسلامية في شمالي أفريقيا التي كانت تتعرض للهجمات الصليبية الأسبانية والبرتغالية المتزايدة، وأن يتولى بعضهم بأنفسهم قيادة الغزوات الجهادية ضد العدو أو يوجهونها روحياً ومعنوياً بإصدار الأوامر والتوجيهات التحريضية إلى أهل المدن الساحلية ونحوها للدفاع عن أنفسهم.

لقد تميزت المرحلة ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر أيضاً بتفجر صراع شمولي حاد بين عرب المغرب العربي ومن جاء لنصرتهم من الأتراك من جهة والبرتغال والأسبان من جهة أخرى. وشمولية المقاومة الإسلامية لهذا الغزو الأوروبي انعكست على العلاقات بين الدول الإسلامية القائمة آنذاك من جهة، وعلى علاقات أقطار المغرب العربي وهيآتها الحاكمة مع الدولة العثمانية من جهة ثانية، وعلى علاقاتها

33- عبد الكريم كريم (1997)، ص26-28.

34- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص465-466.

بالدول الأوروبية التي كان بعض حكام هذه الدول يستنجد بها أو يتحالف معها ضد جيرانه، كما أشرنا.

وقد شهدت هذه المرحلة اكتشاف العالم الجديد «الأمريكيتين» (1494)، وسقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس في أيدي الأسبان (1492)، بعد حرب طويلة ومستمرة دامت ما يزيد على عشر سنوات. وقد أسفرت هذه الحرب عن تصفية الوجود العربي الإسلامي نهائياً في شبه جزيرة إيبريا، وتغيير في موازين القوى بين الشرق والغرب، ووقع فيها الإسلام والمسيحية في معركة مواجهة معركة بقاء أو فناء، وتبعاً لذلك تسارع إيقاع التوسع الأوروبي في المغرب العربي وأفريقيا.

وقد كانت أسبانيا والبرتغال قد ظهرتا منذ أواخر القرن الخامس عشر كقوتين كبيرتين توسعيتين في قارات مختلفة من العالم (الأمريكيتين، أفريقيا وآسيا). وقد وظفتا قوتهما الاقتصادية المتنامية بسبب استغلال توابل الشرق وكنوز الغرب في تعزيز قواتهما العسكرية وأساطيلها التجارية والحربية وزيادة حجمهما في محاربة المسلمين في شمالي أفريقيا وشرقها، وحول شواطئ شبه الجزيرة العربية وفي الشرق الأقصى. وكانت الثغور المغاربية من المراكز الأولى التي اتجهت إليها أنظار الأسبان والبرتغاليين، واحتلال مواقع مهمة منها، كما رأينا يشجعهم على ذلك الأحوال الداخلية المضطربة بالبلدان المغاربية بسبب ضعف الحفصيين في المغرب الأدنى (تونس) وبني زيان في الجزائر والمرينيين والوطاسيين في المغرب الأقصى[35].

وكانت حصيلة هذا الصراع بين تلك القوى اختفاء دولة المماليك في المشرق العربي 1516-1517، كما ذكرنا، وسقوط دول المغرب العربي الثلاثة وإماراته المتهالكة كإمارة الثعالة حول مدينة الجزائر وإمارة كوكو وإمارة المقرانيين وإمارة عيسى في المغرب الأوسط[36]. والإمارة الشابية في المغرب الأدنى (تونس). وهكذا وقع الوطن العربي عدا المغرب الأقصى في شمال أفريقيا، ونجد في قلب الجزيرة العربية في حوزة الدولة العثمانية في المرحلة ما بين 1518-1574 حيث أخذت بعد الشام ومصر الجزائر وطرابلس وتونس، واستمرت تحكم الوطن العربي في بعض أجزائه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

35- عبد الكريم كريم (1977) ص2-12.

36- أبو القاسم سعد الله (1985) ج1، ص132.

والخلاصة: إن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية والدينية قد أسهمت، إلى حد كبير، في ظهور الحركات الصوفية في المغرب العربي وتأسيس وانتشار الزوايا الصوفية وازدهارها خلال الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، حيث إن الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا والغزو الصليبي الذي كانت تتعرض له بلدانه قد مهدت السبيل لظهور المرابطين وتوليهم مسؤولية الدفاع عن المنطقة والتحالف مع أية قوى إسلامية جديدة في صد هذا العدوان. وقد وجدوا هذه القوة في الدولة العثمانية التي رحب بها المرابطون، وكانت هي نفسها قد أعطت المرابطين وحركة التصوف والمتصوفين كل الدعم والمساندة ما ساعد على انتشارها وتزايد نفوذها الروحي على العامة والخاصة في كامل الدولة العثمانية ومن بينها الطريقة الشاذلية العروسية التي أسهم الشيخ عبد السلام الأسمر وطريقته الصوفية بقسط كبير في ترسيخها ونشرها بالبلاد الليبية.